قيام الممالك وانحطاطها

ومستقبل المملكة البريطانية

نشرت مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية مقالة للسر الس باركر موضوعها مستقبل المملكة البريطانية جاء فيها على خلاصة من تاريخ الممالك العظيمة التي قامت ثم انحطت وانقرضت منذ ثلاثة آلاف سنة الى الآن فاقتطفنا منها ما يلي

بدأ الكاتب مقالتهُ بثلاثة اقوال حكمية لثلاثة من الفلاسفة الاول قول افلاطون وهو " ان الممالك في حرب عوان بعضها مع بعض وما تسميهِ سلمًا انما هو سلم بالاسم . والحقيقة ان الطبيعة اثارت الشعوب بعضهم على بعض فهم في حرب دائمة ولو لم تعلن "

وقال ديونيسيوس الهاليكارناسي " أن القوي يتغلَّب على الضعيف وذلك ناموس طبيعي عام "

وقال توماس هُبس " ان كثيرين يطلبون شيئًا واحدًا في وقت واحد وقد يتعذَّر عليهم ان يشتركوا فيهِ او ان يقتسموهُ فتدهو الحال ان يكون من نصيب الاقوى ولا يُعرَف مَن هو الاقوى الاَّ بالقتال "

ثم شرع الكاتب بعد هذا التمهيد في بسط الحقائق التاريخية التي بنى عليها حكمهُ فقال ان الاختبار ابو الحكمة والتاريخ فلسفة قواعدها الامثلة ونواميسها ثابتة مثل نواميس الطبيعة فاذا شئنا ان نعرف مستقبل بريطانيا العظمى لم نستطع الاعتماد على آراء اهل النظر مهما كان مقامهم رفيعًا بل لا بدَّ لنا من الالتفات الى حوادث الماضي والاسترشاد بوقائع التاريخ التي يقاس عليها وحينئذٍ نستطيع ان نبني حكمنا على العلم والاختبار

بريطانيا العظمى ومستعمراتها اعظم مملكة تجارية بحرية وعظيمتها قائمة بنموِّها في التجارة وسلك البحر وهذه العظمة حديثة العهد ولا قديم في هذه الدنيا ولا شيءٌ يدوم فيها الاَّ التغير فقد تفقد بريطانيا عظمتها وتخسر ثروتها واذا اردنا ان نعرف ما يمكن ان يأول اليهِ امرها بعد زمن بعيد او قريب وجب ان ننظر في تاريخ الممالك التي فاقت غيرها في التجارة وسلك البحر ونبحث عن الاسباب التي دعت الى انحطاطها سياسيًّا وماليًّا

فينيقية اقدم الممالك التجارية البحرية التي وصل الينا تاريخها فقد كان الفينيقيون تجارًا وبحَّارين من الطبقة الاولى والداعي الاكبر لذلك طبيعة بلادهم وموقعها الجغرافي فانها جبلية

صغيرة ولكنها كثيرة الاشجار الصالحة لبناء السفن فاضطرتهم طبيعة بلادهم الى ركوب البحار في طلب الرزق . ومما يستحق الذكر ان اسم مدينتهم صيدا مشتق من صيد السمك . ويقال ان ادوات الصيد اختُرعت في مدينة صور فكان صيد السمك اساس عظمة فينيقية كما كان اساس عظمة اثينا والبندقية وجنوى ومرسيليا وهولندا وانكلترا . وموقع فينيقية الجغرافي من افضل المواقع التجارية فان العمران كان على اعظمهِ بين القرن العاشر والخامس عشر قبل المسيح في اشور وبابل ومادي وفارس ومصر . فكانت فينيقية في مركز البلدان العامرة ولذلك برع الفينيقيون في التجارة بين تلك الممالك يبدلون بضائع الواحدة ببضائع الاخرى . وقد كشفت الآن آثار تجّارهم في نينوى ومنف وهي واسعة النطاق جدًّا وتدلُّ على انهم كانوا على ثروة طائلة . والسعة تزيد عدد السكان فزاد سكان فينيقية واضطروا ان يجدوا متنفسًا في البلدان المجاورة فجعلوا ينشئون المستعمرات في جزائر البحر المتوسط وعلى سواحل اسيا وافريقية . قال استرابو المؤرخ انهم انشأوا ثلث مئة مدينة على ساحل افريقية الغربي وشملت تجارتهم البلاد المتمدنة واستخرجوا الذهب والفضة والنحاس من مناجم اسبانيا وفتحوا مناجم التصدير في كورنول (بلاد الانكليز) وجزيرة صقلية . وقال هيرودوتس انهم داروا حول رأس الرجاء الصالح فعرفوا تلك الارجاء قبلما وصلها احد من الاوربيين بالفي سنة . فهم روّاد العمران وهم ممدنو العالم ومصلحوهُ . وكانوا يجلبون البضائع من البلدان التي وصلوا اليها ويتعلمون صنائع اهلها ويزيدونها اتقانًا فصاروا اعظم صنّاع الدنيا . وقد ابان هوميروس في الالياذة والاودسي ان فينيقية كانت في ايامهِ معمل العالم فكانت مشهورة بنسوجاتها البديعة المصبوغة بابهى الالوان وبآنيتها وادواتها المعدنية والزجاجيَّة . والمهندسون الفينيقيون بنوا هيكل سليمان وجسر زركسيس . وسفن الفينيقيين كانت تحمل تجارة الارض كلها واساطيلهم كانت مسلطة على كل البحار . وكان القدماء يعتقدون ان الفينيقيين هم الذين استنبطوا حروف الكتابة وارقام الحساب وصناعة بناء السفن وسلك الابحر واستعمال الموازين والمقاييس والنقود واخترعوا ما لا يحصى من المخترعات الصناعية . ولا شبهة ان نسبتهم الى العصور الغابرة نسبة الانكليز الى هذا العصر

ونمت مستعمرات الفينيقيين وتقدّمت صناعتها وتجارتها فجعلت تناظر امهما فيهما . ثم ان العمران الذي نشرهُ الفينيقيون نشأ عنهُ مراكز جديدة للعمران في سواحل اليونان وايطاليا وجنوبي فرنسا واسبانيا وغربي افريقية قام منها امم اشتهرت بالصناعة والتجارة ففتحت البلدان المتوحشة التي وراءها وكان حظ قرطاجنة اوفر من حظ غيرها لوقوعها عند منتصف البحر

المتوسط فكان موقعها اصلح للتجارة من موقع فينيقية نفسها فاستأثرت بالجانب الاكبر من تجارة الفينيقيين لكنها لم تعظم لانها من مستعمراتهم واهلها من جاليتهم . ثم ان اهالي مدن اليونان الذين تعلموا من الفينيقيين انشأوا مستعمرات في اسيا الصغرى جعلت تناظر الفينيقيين هناك وتمتد في تجارتها الى بلاد فارس

يقال في كتب الاقتصاد السياسي ان المناظرة مفيدة للتجارة . وهذا صحيح ولكن فائدتها مقتصرة على الذين يشترون البضائع لانها ترخصها لهم ولكنها لا تفيد الذين يصنعونها ولا الذين يتجرون بها ولا تستفيد امة من التجارة فائدة كبيرة الا اذا احتكرتها بطريقة من الطرق اما المناظرة فاذا كانت بين ابناء الامة الواحدة فقد تدعوهم الى اقتسام المكاسب على السواء واما اذا كانت بين ابناء امم مختلفة دعت الى تقليل المكاسب حتى لا يبقى منها شيء فما دامت الامة الصناعية التجارية قادرة على تجديد المكاسب من صناعتها وتجارتها كانها محتكرة لها فهي في سعة وغنى ونجاح مستمر ولكن اذا حُرمت هذا الاحتكار زالت سعتها وافل نجم نجاحها

وكان سكان قرطاجنة من الفينيقيين انفسهم فسهل على اهل فينيقية احتمال مناظرتهم ولكنهم لم يستسهلوا مناظرة اليونان لهم . وكان اليونان قرصان بحر من قديم الزمان فوقع النزاع بينهم وبين الفينيقيين على السيادة في البحر المتوسط لان الذي يستأثر بهذه السيادة يستأثر بالتجارة والثروة ولا ينفصل في ذلك الا بالحرب . ويظهر مما قاله هيرودوتس ان قيام الفرس على اليونان كان بتحريض الفينيقيين وقامت فينيقية وقرطاجنة وضربتا اليونان ومستعمراتها بحرًا لانهُ بينما كانت جنود الفرس والفينيقيين تهاجم بلاد اليونان برًّا وبحرًا كانت سفن فينيقية وقرطاجنة تنازل مستعمرات اليونان في صقلية وهي ثلاثة آلاف سفينة فيها ثلثمئة الف محارب ويقال ان الدائرة دارت عليها في اليوم الذي دارت فيهِ الدائرة على الفرس والفينيقيين في معركة سلامس المشهورة وكانت سفن اليونان قليلة بالنسبة الى سفن الفينيقيين ولكن اليونان لم يكونوا مترفهين متنعمين كالفينيقيين فتغلبوا عليهم واستقلت السيادة في النصف الشرقي من البحر المتوسط الى يد اليونان

واتسع نطاق العمران ونطاق المعمور فاتسع المجال لامتين بحريتين تجاريتين قرطاجنة واليونان وكانت قرطاجنة واقعة بين اسبانيا وبلاد اليونان وبين المغرب الاقصى واسيا الصغرى فاستأثرت بالسيادة في النصف الغربي من البحر المتوسط . وكانت بلاد اليونان واقعة بين مستعمرات اليونان في اسيا الصغرى وبين مستعمراتهم في ايطاليا فاستأثرت بالسيادة في النصف الشرقي من البحر المتوسط . وبلاد اتكا صخرية كما لا يخفى فلجأ الاثينيون اهلها الى

الصيد والتجارة وعلا كعبهم بعد معركة سلاميس فصار لهم الشأن الاكبر في القسم الشرقي من البحر المتوسط واحتكروا تجارته فافاضت عليهم سيارب الثروة وصارت اثينا مركز مملكة عظيمة وجعلت جزر اليونان تؤدي لها الجزية مقابل حمايتها لها من الاعداء حتى صار اليونان يعدون اثينا مركز تجارة الدنيا وصارت نفائس السلع واعلاق البضائع ترسل اليها من كل الاقطار كما قال زينفون . واشتهرت مصنوعات اثينا في كل العالم القديم وكان فيها الحكمة العليا لفصل الخصومات التي تقع بين مستعمرات اليونان والسوق المالية للمملكة اليونانية والمدرسة الجامعة لسكان الارض والدار التي يتعلمون فيها الفنون فاصبحت اثينا مقر الثروة ومنها كانت الاموال ترسل الى كل الاراضي الروماني على ما قاله ديموستنس فجعل اهلها يعيشون من تعب غيرهم ومن ريع اموالهم " الموظفة " في غيرها من البلدان ومما يأتيها من الجزية والاتاوة الواردتين اليها من الجزائر والمستعمرات فاغتر سكانها بما نالوه من الثروة وحسبوا ان الطبيعة قدّرت ان تكون بلادهم اغنى البلدان صناعة وتجارة وستبقى ارضها مقامًا . قال زينفون

" ان الاثينيين هم الامة الوحيدة بين اليونان وغير اليونان التي تستطيع ان تكون ذات ثروة طائلة لانهُ ان كانت بلاد اخرى غنية بالخشب الذي تبنى منهُ السفن او بالحديد او بالنحاس او بالكتان فكيف يصرّف اهلها هذه البضائع ان لم يبيعوها لسيدة البحار ونحن قد حرمنا اعداءنا من البحر وبواسطته نتمتع بكل خيرات الارض من غير تعب ولا نصب "

فاعتزّ الاثينيون بنجاحهم واغتروا بتضليل اهل السياسة منهم فعكفوا على الراحة والرفاهة وكانت البلاد جمهورية فجعل مجمع السلطة فيها يعززون مقامهم بتملّق الجمهور وتضليله فبنيت المباني الفاخرة لتسلية السكان وكان الدخول اليها مباحًا للجميع مجانًا ثم صار الداخل اليها يُعطى اجرة دخوله وتسليته . والمناصب التي كانت مناصب شرف صارت سُبلاً للكسب وزاد عددها جدًا حتى صار جانب كبير من السكان يعطى الرشوة على سبيل الراتب وصارت مناصب الحكومة تعطى بالقرعة ويؤجر الناس لحضور الاجتماعات العمومية . قال ارسطوطاليس ان عشرين الفًا من السكان كانوا يعيشون من اموال البلدان الخاضعة لاثينا او الحالفة لها . وصارت الخطة توزّع على الناس مجانًا فسدت اثينا وامتلأت بالكسالى الخاملين الذين غرضهم من الحياة ان يأكلوا ويشربوا ويترفهوا وانتظم الغرباء في جيوشها البرية والبحرية بدل رجالها فاضطرت ان تزيد الجزية على البلدان الخاضعة لها لتقوم باجور المسترزقة من جنودها ولتشبع رجالها الكسالى واهملت الزراعة تمام الاهمال

وغارت اسبرطة من غنى اثينا وجعلت تنظر الى الاثينيين بعين الازدراء وتقول انهم لا

يستحقون النعمة التي هم فيها وعزمت على الايقاع بهم فنشبت الحرب البلوبونسية غيرةً من اثينا ونجاحها التجاري فدارت الدائرة على الاثينيين لانهم كانوا قد انغمسوا في الملاذ واعتمدوا على ثروتهم لا على اسلحتهم ففقدوا سيادتهم البحرية والتجارية وفقدوا معهما مستعمراتهم ولم يعد احد يؤدي لهم الجزية ولا عاد مستدينو اموالهم يدفعون الربا فسقطت اثينا من علو مقامها وزالت ثروتها الواسعة وتولاها الانحطاط

وبقيت رودس على الحياد في تلك الحرب فتحولت التجارة البحرية اليها فصارت بلاداً تجارية وساعدها على ذلك توسطها بين اليونان ومصر وآسيا الصغرى وايطاليا وأمن مرفإها ومهارة ملاَّحيها وكان اهاليها غاية في الهمة والاجتهاد والاقتصاد فانقادت اليهم التجارة البحرية في شرقي البحر المتوسط فملكوا ناصيتها وخلفت رودس اثينا وصارت اغنى بلدان اليونان واصحت مقرًّا للعلم والحكمة ففيها تعلم شيشرون وبمبايوس وكان قيصر ذاهباً الى مدرستها لما اسره القرصان

وبقيت السيادة لقرطاجنة في النصف الغربي في بحر الروم كما تقدم فانتشرت مصنوعاتها في المسكونة ولم يكن لتجارتها مناظر ولا لاسطولها غالب فتدفقت ينابيع الثروة على تجارها كما تدفقت على تجار اسلافهم الفينيقيين فأهملت زراعتها وجيوشها البرية ولم تعنَ الاَّ بسفنها وجيوشها البحرية حاسبة انهم يكفون لحمايتها كما فعلت فينيقية من قبلها. وكانت الخطة تأتيها من صقلية والصوف والمعادن من اسبانيا فحسدتها رومية على غناها واحتقرتها لترفُّه اهلها. وغزا الرومانيون صقلية واسبانيا وحرموا قرطاجنة موارد رزقها وثاروا عبيدها عليها فاضطرت ان تحارب لحفظ كيانها ولم يكن لها مندوحة عن الحرب فبنى الرومانيون سفناً حربية على مثال السفن القرطاجنيَّة واستنبط احد قوادهم الخطاطيف وهي ادوات من الحديد لها كلاليب تلقى على سفينة العدو فتمسك بها حتى يتعذر عليها الافلات فتمكنت رومية من الايقاع باسطول قرطاجنة والتغلب عليه . وبعد حرب عوان تمكن الشعب الفقير الباسل من الفوز على الجنود المسترزقة التي استأجرها الشعب الغني المترفه فقضي امر قرطاجنة

وقد خلص شيشرون سياسة البلدان الحربية بقوله . هل تصفو الايام لمملكة معروفة بالغنى وهل ترك قواد رومية بلاداً غنية من غير ان يجتاحوها. ولما تغلبت رومية على قرطاجنة امتلكت زمام الثروة وملكت الدنيا سياسياً وماليًّا . والرومانيون جنود وفلاَّحون بالفطرة والثروة تنقاد للاقوى ولو لم يكن طالب مال لان القوة ثروة فاكتسحت رومية ثروة العالم واتت بها الى ايطاليا وميزت التجار الرومانيين على غيرهم في كل مملكتها الواسعة فصارت لها السيادة البحرية والتجارية

ثم انقلبت رومية من الملكية الى الجمهورية وجعل رجال السياسة فيها يتناظرون في الانتخابات فينتخب اقدرهم على ارضاء المنتخبين فتولي شأن العامة لان انتخاب الخاصة صار في يدهم وتعلموا الكسل واعتادوا الترفه بما كانوا يعطون من الاموال ولم يعد فلاحو ايطاليا قادرين على منافسة البلدان التي تعتمد على عمل العبيد فاضطروا ان يهملوا اراضيهم ويجعلوها مراعي للمواشي او يعتمدوا على العبيد في زراعتها وينتقلوا الى المدن فانحط امر الزراعة وصارت رومية تعتمد في طعامها على البلدان البعيدة. قال تاشيتس "ان ايطاليا كانت ترسل الطعام الى جنودها وهم في البلدان البعيدة لان بلادها خصيبة فصار الشعب يجلب طعامه من مصر وافريقية ويعتمد على السفن ومخاطر البحار". وقال شيشرون "ان معتمد رومية الى الجزية التي تجبيها من آسيا" ولذلك توالت عليها المجاعات وتخرسوس الفساد عظامها لا لان الخبز غلا فيها بل لان سكانها انقطعوا عن العمل وعاشوا بالكسل فان كايوس غراكوس خفض ثمن الحنطة وجعل بيعها للسكان بثلث ثمنها حتى يبقوا في قبضة يده ثم جعلت الحكومة تعطي الحنطة مجانًا وكان ٣٢٠ الفًا من السكان يأخذون الحنطة مجانًا في زمن قيصر. وبلغ من امر حكومة رومية ان صارت توزع الحنطة والخبز واللحم والزيت والملح والخمر وصار سكان رومية فريقين فريق التجار الاغنياء وفريق الكسالى العائشين من اموال الحكومة واحسان المحسنين يشبعون يومًا ويجوعون يومين مع ان الحنطة كانت ارخص في رومية منها في كل مكان آخر. ولقد كان مدار سياسة رومية على ترخيص الطعام للرومانيين ولكن ترخيص الطعام لم جعلهم اشد الناس افتقارًا اليه فاذا اتتهم سنة محل ماتوا جوعًا. قال تاشيتس "ان الاسكندرية مفتاح مصر فاذا حصرت ومُنع خروج الحنطة منها مات سكان ايطاليا جوعًا" وبفساد اخلاق الرومانيين فسدت اخلاق جنودهم وزالت قوتهم فاضطرت رومية ان تنظم جنودها من المرتزقة فجعلت حاميتها من الالمانيين وحراس قياصرتها من الهولنديين ولم يبق فيها الا التجار الاغنياء والغوغاء الفقراء والجنود الغرباء حتى اذا هجم عليها برابرة الشمال تداعت اركانها ونقوض بنيانها ونقلت عاصمتها الى القسطنطينية

وخلفت القسطنطينية رومية في كل شيء وساعدها مركزها الجغرافي البديع على ان تصير اغنى مدن الدنيا وجعل اغنياؤها يطعمون فقراءها لكي يشتروا اصواتهم في الانتخابات واضطرت ان تعتمد على الغرباء لحمايتها حتى لما دخلها محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ كان ١٠ من كل ١٢ من قواد جنودها اجانب واكثر جنودها من الايطاليين

ستأتي البقية